

عوامل الضعف والتطور في الشعر الجزائري الحديث

من منظور الدكتور صالح خرفي

منصوري عبد الوهاب

جامعة جيلالي ليابس

الملخص : يسم الكاتب 'صالح خرفي' حالة الأدب في الجزائر في العهد العثماني بالجمود والضعف وضالة النتاج الأدبي، و بخاصة عندما أقدم الأتراك على تتريك محيط إمبراطوريتهم. فانصرف الشعراء العرب إلى أمور تافهة، بعد أن علموا أن أذان حلفائهم. لا تستسيغ الصوت العربي. وبذلك صار مشروعا طرح مجموعة من الاستفسارات بغية الوقوف على الاعتبارات التي منعت الأديب الجزائري من مواصلة مسيرته الإبداعية منذ أن صارت العربية لغته الأولى مع الفتح الإسلامي.

أ - عوامل الضعف :

- العهد العثماني :

يربط صالح خرفي الوهن الذي أصاب الأدب في الجزائر بما أصاب العهد في أيامه الأخيرة من تدهور في كل مناحي الحياة وفي الإمبراطورية كلها شرقا وغربا، وما الأدب إلا المنحى الحيوي يتأثر بمحيطه مدّا وجزرا، ولم يكن حظ الأدب في العهد العثماني الأخير إلا الجزر، ونصيب الأسد من ذلك للأدب الجزائري⁽¹⁾. فهو يربط بين الفعل السياسي والفعل الإبداعي، وكان الأول هو الموجه والمحفز وما الثاني إلا صورة عاكسة للأول يسمو إذ سما ويتراجع دوره ووظيفته إذا ضعف و اضمحل، فيما أن العكس هو الذي ينبغي أن يكون. فالأدب هو الموكل الوحيد لاستشراف المستقبل وتجاوز الواقع وصانعيه، أما إذا كان صورة مطابقة لرداءة الأوضاع أو حيوييتها فقد تميزه وتفرد.

إن الأدب بهذا المفهوم سابق لعصره وزمانه و قفزة نحو اختراق آفاق جديدة لا تخطر على المسيجين داخل مادية الواقع، ينطقون بلسان ومنه يستقون صورهم وتراكيبهم.

لكن لم يجد صالح خرفي تفسيرا لضعف الأدب غير ذلك الربط و بخاصة أن نقاد آخرين يتقاسمون معه الحكم نفسه فأحمد بن عمار⁽²⁾ وهو يحاول في كتابه (نحلة اللبيب) أن يعدد أسماء الشعراء في العهد التركي فلم يجد سوى اثنين هو ثالثهما⁽³⁾، إن المتأمل لهذا الحكم الذي يصدره الناقد يتبين أن لا شيء كان يحفز الحركة الأدبية على النهوض وأن الشعراء انصرفوا إل امتهان حرف أخرى يسترزقون منها مادام سوق الأدب أصبحت سلعته كاسدة⁽⁴⁾ و مهما يكن فالعهد التركي بما له أو عليه، فإنه في نظرنا وفي الجزائر بالذات أبعد ما يكون عن تغذية الأدب بما يكسبه خلقا و إبداعا. و لعلها إحدى النتائج المرة لانعدام التجاوب البناء بين الشعب وبين السلطة التي حكمته

بالاسم طيلة قرون عدة. ولا أدل على ذلك من انطواء هذا العهد الطويل النفس من غير أن يخلق له ذكرا، مرموقا في نص أدبي لأديب جزائري. وربما كان الحكام الأتراك أنفسهم أزهى الناس في الأدب لفقدان الملكة التي تيسر لهم تذوقه والتجاوب معه فإنهم أشد ميلا للتجاوب مع الشعوذة الدينية وتغذيتها...⁽³⁾ وهي الملاحظة نفسها التي لاحظها محمد الطمار حين رأى ((أن جهود الأتراك كانت متجهة نحو حركة الجهاد ضد القراصنة والمعتدين على البلاد. فلم يعطوا لأمر الثقافة ما تستحقه من عناية واهتمام ولهذا غلب على عهدهم الجفاف الفكري))⁽⁴⁾.

ولا يخفي على أحد الدور الذي قدمه الخلفاء السابقون على الأتراك للحركة الأدبية وأثرهم في تطورها وازدهارها، فتشجيع السلطات يفتق المواهب ويخلق جوا للمنافسة فتبرز الطاقات وتتسابق للإتيان بالجديد والغريب أيضا "وقد كان الأدب والعلم والفن في العالم الإسلامي قبلهم وليد التشجيع الرسمي في معظم الأحوال..."⁽⁵⁾.

ومن الأسباب الأخرى التي يسوقها الناقد لتدعيم حكمه هو ارتباط الشعر عند من تبقى من الشعراء بالمناسبات ((وتنحصر المناسبة هي الأخرى حتى تصبح حولية، فلا تكاد ينطق صوت القصيدة إلا في المولد النبوي، وقد اكتسى صبغة عكاظية لهذا العهد))⁽⁶⁾.

لم يكن هناك تواصل واستمرارية حتى بالنسبة لهذه القلة القليلة من الشعراء وهو ما يؤدي حتما إلى الجمود والتجبر. وبديهي ألا يخرج الشعر الذي كان ينظر من قبل هؤلاء عن نطاق المدائح النبوية التي هي في الأصل من وحي الذكرى.

إن المتأمل للأسباب التي أوردها الناقد في تبرير ضعف الأدب في العهد العثماني يرى أن اللوم كله موجه للحكام العثمانيين فهم الذين كانوا سببا مباشرا في تحنيط الحركة الأدبية. ولكن هل ينتظر من العثمانيين أن يكونوا غير ذلك؟ وهل كانوا أصحاب معرفة بالأدب تدفعهم إلى تشجيع الأدباء ولم يفعلوا؟ ((إن العثمانيين كانوا يفتقرون إلى أشياء أساسية لكي يشجعوا الأدب والعلم والفن في الجزائر، وأول ذلك اللغة، لقد كانت لغة الوجد والعامة هي التركية، وهي لغة للحديث أكثر منها للكتابة، ولم تكن هناك أعمال أدبية هامة أنتجت بهذه اللغة إلى ذلك الحين. و كان كل المسؤولين يعرفون هذه اللغة أيضا أو على الأقل يتحدثون بها، وقد جعلوها لغة رسمية في الدواوين وفي المعاهدات وبعض السجلات (...) ولا شك أن لغة الحضارة الإسلامية في وقتهم كانت هي اللغة العربية ولا نعرف أن الحكام العثمانيين كانوا يتقنون العربية العامية فما بالك بالعربية الأدبية. فكيف نتوقع منهم تشجيع إنتاج بلغة لا يعرفونها ولا يتذوقونها؟...))⁽⁷⁾.

الثابت أن العثمانيين لم يجاربوا التعليم بل إنهم ساعدوا على نشره بما استطاعوا ((وتركوا التعليم حرا، فالأمة مسؤولة على تعليم أطفالها، كما أن الأمة مسؤولة على القيام بشؤون دينها))⁽⁸⁾. ولكن أليست الأمة

على دين حكامها كما يقال؟ ثم أليس من سبيل الإقتداء بالحكام انشغال الجزائريين ببناء الأضرحة والزوايا التي ساعدت على انتشار موجة الطرقية التي لا تخدم بالضرورة الأدب والإبداع.

و من ثم يصبح حكم "صالح خرفي" عاما و شاملا لا يراعي بعض الخصوصيات والإستثناءات التي لم يمسهما الضعف والتي لم تكن عاكسة له ((فقد وجدنا في العهد العثماني تراثا أدبيا و فنيا و علميا في مستوى طيب استحق منا العناية والدرس في هذا الكتاب، و لكن يجب أن نلاحظ من الآن أن هذا الإنتاج بأنواعه كان خارج نطاق الحكم. فأصحابه لم يجدوا التبني و لا التشجيع من الحكام العثمانيين. و قد أنتج الجزائريون خلال هذا العهد أدبا راقيا نسبيا شعرا ونثرا تناولوا فيه شتى الأغراض المتداولة عندئذ))⁽⁹⁾.

إن هذا الحكم أقرب إلى المنطق الذي ساقه الناقد "صالح خرفي" إذ لا يعقل خلو عصر بكامله من أصوات شعرية متميزة لا يمنعها الضعف العام من الإسهام في بناء قصيدة تضافرت جهود كثيرة في تأسيس منهجها.

- الاحتلال الفرنسي؛

لم تنهأ الجزائر لحظة خروجها من الوجود العثماني إلا لتدخل عهدا آخر أكثر شراسة وظلاما فتزداد ((الفاقة استفحالا بالاحتلال الأجنبي، فاستكملت جانبها الآخر، جانب قائم تمخضت عنه نهاية حكم. و جانب أشد قتامة غذته بداية حكم آخر لا يمدى روعه، إلا أن يتفرج على المأساة متتابعة الفصول حتى إسدال الستارة))⁽¹⁰⁾.

إن الموجة الصوفية التي شهدها العهد التركي و غذاها كانت على حساب الأدب التي وجد فيها المستعمر في رأي الناقد - بابا واسعا لتخدير الشعب ودروشته من جهة و في تجميد وتحنيط الحركة الأدبية من جهة أخرى، ((فعمّ المجتمع زهدا في الأدب و عزوفا عنه، فلا عجب أن يسرد العالم أسماء المشايخ الذين أخذ عنهم ويعدد (الإجازات) التي تلقاها منهم والكتب التي درسها عليهم فلا تكاد تعثر على كتاب (أدبي) أو إجازة أدبية. و تتصفح كتب التراجم و هؤلاء المشايخ والعلماء، و يعز عنك العثور على اسم أديب أو شاعر يتخلل عشرات الأسماء منهم، و تنقب في المخطوطات المودعة في الجوامع أو المكتبات الخاصة فلا تجد لها زاخرة إلا بالكتب الفقهية))⁽¹¹⁾.

و بذلك اتخذت الثقافة الجزائرية وجهة دينية⁽¹²⁾، رأى فيها أصحابها صونا لهم من الحملات التغريبية التي كانت السلطات الاستعمارية تحاول إبعاد الجزائريين من خلالها عن مقومات شخصيتهم و لكن في مقابل ذلك منعت تلك الوجهة من الاهتمام بالشعر حيث كان ((في تقدير بعضهم من لهُو الحديث الذي ينهى الله عنه و أن الاشتغال به اشتغال بمحرم و أن العلم الصحيح هو علم الشريعة وحده))⁽¹³⁾.

أما عامة الناس والذين لم تكن الثقافة الدينية ضمن اهتماماتهم فقد شغلتهم هموم الحياة وقساوتها من الانشغال بالأدب، فلم ((يعد من همهم التعبير الجميل الغزل المليح والوصف الرائع لأن ذلك لن يغنيهم عن النار التي يتلظون بها قتيلا ولن يقف بينهم وبين الغاصبين حائلا، بل إنهم لن يجدوا الوقت الذي يستمتعون فيه بمثل هذا الأدب الذي كان يخاطب العاطفة بالغزل والخمر والرياض ويخاطب العقل بالحكمة والزهد والفلسفة))⁽¹⁴⁾.

إن ما ذهب إليه "صالح خرفي" في ربطه ضعف الأدب الجزائري بموجة الطرقية التي روج لها العثمانيون و ثمناها الفرنسيون لمسايرة أسسها للأهداف الاستعمارية التي كانت تسعى لبقاء الأوضاع على حالها ساكنة هادئة، لا تشوبها حركة ولا نوايا تغيير وثورة، له ما يبرره من الوجهة العملية الإبداعية التي لا يمكن أن تنمو ولا أن تبتدع لنفسها بنيات جديدة في جو مغلق لا يؤمن بجداهاها. بل إنه يدخلها في دائرة المحرمات بمفهوم استخلص من قراءة سطحية لمفاهيم الدين الإسلامي دون إدراك واع لابعاده ومرامييه ..

لم يكن للأدب تبعا لذلك قوة يخوض بها معارك سياسية ولا أن يحفز على بلورة روح قومية بله أن يدعو إلى مستقبل وطني ينشد الحرية والكرامة. وطبيعي أن يتيح الاستعمار السيطرة الكاملة على كافة مناحي الحياة، فأصبح الجزائري تائها، خائفا، منعزلا قلقلما يخبئ له المستقبل. وكان في أمس الحاجة إلى من يحركه ويوجهه. و ظل كذلك ردحا من الزمن لا ينتظر منه إلا ركود و جمود. وبذلك فقد الأدب دوره في خلخلة الأوضاع ودفعها إلى تبني مبدأ التغيير وإشعال نار الوطنية في القلوب التي تؤدي إلى التمرد ضد الظلم والاستبداد.

فالحركة الأدبية النشيطة كثيرا ما أسهمت في تكوين مجتمع واع مطالب بحقوقه مدافع عنها وذلك ما يفسر رغبة الاستعمار منذ دخوله الجزائر في القضاء على كل ما ينير الطريق والسعي إلى نشر الجهل بكل الوسائل، محاربا وبكل قسوة من تسول له نفسه نشر بصيص من العلم والأدب. لعل ذلك ما ساعد على بقاء المستعمر طويلا في الجزائر على خلاف البلدان العربية الأخرى إذ ((الفراغ الأدبي الذي كانت تعانيه والذي جعل كل شيء صامتا لا ينبس هادئا لا يتحرك راضيا لا يتمرد، ذلك أن الأدب الجزائري الحديث و خصوصا الشعر لم يكن منذ ظهوره محدود الهدف، عميق الصوت، قائد الخطوات. وإنما ظهر إلى جانب النشاط المضني، و سارعه دون أن يتقدمه خطوة واحدة أو يتمرد على مفاهيم معينة ذاتية))⁽¹⁵⁾.

و في الأخير يمكن اجمال ما رآه الناقد سببا في ضالة النتاج الأدبي الجزائري في عهدي العثمانيين و الفرنسيين فيما يأتي:

- عدم تشجيع الخلفاء العثمانيين و من بعدهم الاحتلال الفرنسي للحركة الأدبية، و تشتيت أفرادها و شدّ الخناق عليهم.

- عدم وجود نواد ثقافية و مراكز توجيهية و بيئة خالصة لتفتق المواهب وظهور التميز.
- الحصار المفروض من قبل الاحتلال جعل الشعراء يعيشون عزلة قاتلة.
- الأمية المنتشرة التي غيّبت ذلك التفاعل مع الشاعر كي يستمر في الإنتاج.
- عدم توفر الساحة على نقاد متذوقين يوجهون الحركة الأدبية.
- عدم وجود جو للتنافس يؤدي بدوره إلى الإبداع والتجديد فيه.
- البكاء على حال المجتمع الذي مرّقه الاحتلال بدل المطالبة بتغيير هذا الواقع.
- الاستسلام للواقع المفروض من قبل السلطة الاستعمارية التي تفننت في استعمال آلة الموت التي تحصد أرواح الأبرياء حتى ترهبهم ولا يفكرون في التمرد عليها.

ما يستنتجه القارئ من خلال هذا أن الوضع كان متوقعا و لا يمكن أن نلوم أدباء العهد على ما أفرزته حركتهم الأدبية من ضعف و وهن، بل إننا نكبر فيهم هذه الاستماتة في المحافظة على اللغة العربية على الرغم من دسائس المستعمر ومكائده للقضاء عليها و يكفي هؤلاء فخرا أن ما أنتجوه كان صورة عاكسة للوضع المأساوية التي كانوا يعيشونها.

لكن تلك الحقائق لا ينبغي أن يفهم منها تطابق السياسة العثمانية مع الاحتلال الفرنسي، فأوضاع الجزائر في عهد الأتراك لم تكن في الغالب وضيعة لنوايا سابقة وعزم على التجهيل والتفكير والتقتيل، إذ إن ما يلحظ من مأس لم يكن بروزه إلا في بداية نهاية إمبراطوريتهم عندما دبّ المرض وبدأ ينخر إماراتها ودويلاتها.

أما المستعمر الفرنسي فقد سارع منذ أن وطأت أقدامه أرض الجزائر في سلب مقومات شخصية الجزائريين وجعلها أكلا سائغا لينعم بخيراتها لا يقلقهم ثائر ولا ينغص حياتهم أديب أو عالم. فالتعليم مثلا و هو الذي يمنح للحركة الأدبية أدواتها وقرائها فاعليتها لم تكن ذات وجه واحد في العهدين؛ إذ ((لم تكن نسبة الأمية عام 1830 حين دخلت جيوش " أصحاب رسالة التقدم والتعلم" سوى 14% وبعد مائة و خمسة و عشرين عاما من الحكم الفرنسي أصبحت نسبة الأمية 92% عام 1955))⁽¹⁶⁾ وهذا دليل على أن غطرسة الاحتلال الفرنسي كانت تسير وراء تخطيط محكم، غرضه تجهيل الشعب و نشر الأمية القاتلة لكل حركة، المتقبلة لكل الأباطيل والخرافات، وبعدها يكون من السهل قيادته وتوجيهه الوجهة التي يختارها له، و هو الرأي نفسه الذي يراه محمد الطمار في مقارنته بين عهد العثمانيين و عهد الفرنسيين، ففي العهد العثماني كانت ((الكتاتيب و المساجد و الزوايا منتشرة في جميع أنحاء البلاد يتلقى النشء فيها ثقافته العربية الإسلامية))⁽¹⁷⁾، أما بعد بداية الاحتلال الفرنسي فإننا

نجدّه قد سعى بكل ما يملك إلى ((تجهيل الأمة الجزائرية، فشغله الشاغل هو إفناء العنصر الإسلامي بالتفكير و تجهيل ما بقي منه))⁽¹⁸⁾، فالفرق واضح بين العهدين، عهد العثمانيين و عهد الاستعمار الفرنسي.

و لكن كل ذلك لا يمكن أن ينسينا معادلة: الأدب هو الموجه للسياسة لا العكس كما سبقت الإشارة في غير هذا المقام ..

ب - عوامل التطور:

بعد السبات العميق الذي فرضه الاستعمار على الحركة الأدبية ((كانت في زوايا متعددة من القطر الجزائري إرهابات تبشر بوجهة جديدة للحياة الدينية والفكرية و دعوة أصيلة إلى المنبع واتصال مباشر بالكتاب و السنة و تطلع نافذ إلى المستقبل فقد بدأت المشاعر الصادقة و الأمانى الوطنية تتجمع و تتحفز في صورة (مدرسة حرة) أو (منتدى ثقافي) أو (حلقة علم) خالصة لوجه الله غير تابعة لحاكم يعد عليها أنفاسها أو مقيدة براتب يعقل لسانها أو وسام يغل عنقها ..))⁽¹⁹⁾ هي استفاقة إذا لها أسبابها التي ستدفع بها إلى الأمام ودون هواده إلى غاية الإعلان عن ثورة منظمة تعيد للجزائري شجاعته وعزته و كرامته وبخاصة حريته التي افتقدتها زمنا طويلا و حاول الاستعمار أن ينسيها إياها.

بدأت الهجرة إلى المشرق ((فقد هاجر كل من الطيبي العقبي والبشير الإبراهيمي و عبد الحميد بن باديس و هم مؤسسو جمعية العلماء))⁽²⁰⁾ بعد أن كسروا الحصار الحديدي الذي كان مضروبا عليهم و أصبح الاتصال ممكنا مع المشرق، و هو ما يؤكد أن السيطرة الإستعمارية هي التي فرضت تعلق الجزائري بروافد المشرق العربي ثم في الرحيل إليه ليفتح جسورا للتواصل معه⁽²¹⁾ و لا يخفى ما لهذا التلاحق من انعكاسات على الإرهابات الإصلاحية التي أبت إلا أن تشق طريقها بنفسها، عازمة على تغيير الواقع متجاوزة مرحلة البكاء عليه فقط.

إلى جانب هذا بدأت تدخل الجزائر و في سرية تامة بعض الصحف التي كان الجزائري يلتهمها في ظروف وجيزة، لينتظر ودافع أخرى. و ذلك للتعطش الكبير الذي عانى منه طيلة الحصار، بعد أن قرر الاستعمار ألا يدخل إليها حرف واحد يساعدها على النهوض والحركة.

إن القراءة المستمرة عمل حضاري يدعو إلى محاربة الجهل و القضاء عليه، كما يبين للناس حقوقهم وواجباتهم و يعبد لهم طرق الحصول عليها و هو الأمر الذي لا يساير غايات المستعمر. و لم يكن الاتصال في ذاته عاملا حاسما في تلك النهضة، فقد أسهمت أسباب أخرى في إحداث الصحوة التي أعادت للجزائريين ثقتهم بأنفسهم و زرعت فيهم نباتا طيبا، بدأ ينمو ثم يزهر حتى وصل إلى النضج الكامل. و انتهى بتفجير ثورة نوفمبر 54. وهي حدث

أبهر العالم و ما كان له أن يكون لولا هذه العوامل مجتمعة التي أشار إليها الناقد صالح خرفي و التي عملت على توعية الفرد الجزائري وتحفيزه على صنع أحداث عظمى.

أما الأسباب الأخرى التي ركز عليها الناقد إضافة إلى ما سبق، فتكمن في الحرب العالمية الأولى و ما تبعها من أحداث؛ إذ جعلت الشعب الجزائري ينفذ غبار الدل والاسكانة و يفكر في المطالبة بتقرير مصيره، سيرا وفق تطورات الشعوب المستضعفة ((وبالذات تلك الشعوب التي دفعت ضريبة الدم في الحرب تحت رايات الدول الكبرى التي أوقدتها و كانت ضريبة الجزائر عشرات و مئات الآلاف من أبنائها سقطوا صرعى في ظل العلم المثلث.))⁽²²⁾

دخل الجزائريون الحرب بكل شجاعة و بسالة و ذاقوا مرارتها و تفننوا في إظهار بطولاتهم التي أعجب بها المحتل نفسه، و لكن جهدهم و جهادهم في هذه الحرب التي لم يكونوا طرفا في اندلاعها و لا أعضاء في مفاوضاتها لم تحقق لهم ما كانوا يحملون به في بلادهم، فبدأوا يفكرون في استغلال الطاقات الشبانية للدخول في معركة مشابهة و لكن هذه المرة لمحاربة الغطرسة الاستعمارية والوصول بالشعب إلى تحقيق مصيره و تقريره.

أحدثت الحرب العالمية هزة عنيفة في نفوس الجزائريين و ردت إليهم و عيهم وأخرجتهم من عزلتهم و سلبتهم التي ساعدت عليها موجة الطرقية التي تفنن المستعمر في نشرها ورعايتها خدمة لمصالحه خلال القرن التاسع عشر، ليجد الجزائريون أنفسهم وجها لوجه مع أحداث القرن العشرين. الأمر الذي أدى إلى خلخلة الأحداث و التي كانت طرفا في القضاء ((على الدور القديم و أنشأت دورا جديدا أناسه غير الناس و أخلاقه غير الأخلاق.))⁽²³⁾

تلك هزة بدأت تحركها الأحداث، كان الشعب غافلا عنها بسبب القوة المادية الاستعمارية، يأتي بعدها دور جمعية العلماء المسلمين الفاعل في تحريك الحركة الأدبية و الدفع بها إلى الأمام وإلى رد الوعي للجزائريين و تذكيرهم بقضيتهم الأم، و التي لا تخرج عن غاية الوصول إلى الحرية والكرامة، ثم رد الاعتبار للشخصية الوطنية وإحيائها بعدما حاول المستعمر تشويهها عن طريق التجنيس والإدماج. ثم إن تفكير جمعية العلماء المسلمين في إنشاء صحف وطنية*⁽²⁴⁾ كان أسلوبا سليما و هادفا، بحيث استطاعت من خلالها تنشيط الحركة الأدبية و توجيهها، ثم لم شمل الشعراء و الأدباء الذين شتتهم الاستعمار وجعلهم يعيشون العزلة القاتلة حين جردهم من دورهم في التعبير عن مأساة الشعب وتنويره. فكان ظهور الصحف الوطنية أملا حاولوا التخلص من خلاله من الخمول الذي فرضه عليهم الإستعمار. و لكي تعطي هذه الصحف دفعة قوية لتنشيط الساحة الأدبية ألزمت الجمعية بضرورة الابتعاد عن السهل والضعيف الذي يقتل الأذهان و يميع الأسلوب، فالشعر عندها ينبغي أن يكون نابعا عن ملكة شعرية لا غير⁽²⁵⁾.

تبدو تلك المطالب ضرورية و بخاصة أن شعراء الجزائر قد انقطعوا عن الأدب مدة طويلة إذ لا يعيدون ملكتهم إلى نشاطها إلا عبر الاحتكاك و العودة إلى العصور الذهبية. لا يغفل القارئ ما لهذه التشجيعات من تحريك

للقرائح وخلق جو للمنافسة الفعالة للوصول إلى الإبداع الراقى، و الدفع بعجلة النهضة إلى الأمام. وبهذا ظهرت الشخصيات المبدعة التي فرض عليها التغييب والتهميش في زمن المحن فبرزت أسماء أسهمت بدورها في الخلق والإبداع.

إلى جانب الصحف الوطنية التي لقيت رواجاً كبيراً لدى القارئ الجزائري المتعطش ((تقاطرت على الجزائر بعض الدواوين الشعرية لرواد النهضة الحديثة في الشعر، و قليل من الكتب الإصلاحية لزعماء الإصلاح الديني في العالم الإسلامي، واحتضنت الصدور بعض المجلات الإصلاحية، تتناوب مطالعتها في شغف وتطلع ((⁽²⁶⁾.

حاول الاستعمار منذ دخوله الجزائر، بناء سياج حديدي على الحدود، ليفرض حصاراً محكماً، يعيش الشعب الجزائري من خلاله في عزلة تامة عما يجري في العالم العربي؛ إذ ليس من صالح فرنسا أن يعرف الشعب ما يجري هناك. لذلك لما أتيت الفرصة لاستدراج الكتاب العربي والمجلة العربية التمهية الجزائرية بشغف كبير، ولا يمكن إغفال ما لهذا الاحتكاك من مزية تساعد على تفتق المواهب وإبراز للشخصية الجزائرية المبدعة. فقد وجدت حقا هذه الشخصية التي غيبت بعد أن أتيح لها التعرف عما يجري وراء الحدود واستطاعت أن تشارك بإنتاجها في المجلات العربية ((و على صفحات كبرى الدوريات في المشرق العربي، وانطلاقاً من مستهل القرن، تبرز أسماء كتاب جزائريين، يرسلون هذه الدوريات من مواقعهم في الوطن المحتل، يتلمسون شتى الحيل لكسر الحصار المضروب عليهم))⁽²⁷⁾، و من الذين كانت لهم إسهامات متنوعة في صحافة العالم العربي والإسلامي ((عمر بن قدور صاحب جريدة "الفاروق" قبل الحرب العالمية الأولى، وكان ينشر قصائده ومقالاته في جريدة (الحضارة) بالأستانة التي كان يصدرها الشهيد "عبد الحميد الزهراوي"، و محمد سعيد الزاهري الشاعر الكاتب الذي ساهم بعد الحرب في كل من مجلة (الفتح) و (المقتطف) و (الرسالة) ((⁽²⁸⁾ وبذلك دشّن عهد الصحوة الأدبية والشعرية عندما انزاحت عن المبدع الجزائري السلاسل المقيدة له من كل حركة.

لاشك أن الصحوة كان لابد لها أن تتواصل و تبتعد عن الانتكاسة لأن الطريق لازال شائكا والاستعمار لا يزال يتربص بكل ما يقلق وجوده، لذلك كان ضروريا التفكير في الهجرة للتعرف عما يجري هناك و عن قرب فكان ((الاحتكاك بالشرق باسم الحج، و في الطريق إلى قبر الرسول كان يمثل الشرارة الأولى لانطلاقة الإصلاح في الجزائر. ويبدو الاحتكاك وكأنه خطة مبيتة أعمق عن كونه ناتجا عن فريضة دينية عفوية ((⁽²⁹⁾. ولا يمكن نسيان أن الاحتكاك الذي وقع مع الشرق كان له تأثير بالغ في توجيه شعراء الجزائر. و من ثم أصبح الشعر الجزائري صورة تكاد تكون مطابقة لمثيلاتها في المشرق، مما جعل شعر تلك الفترة يسير على خطى ما نسجه شعراء الإحياء في الشطر الثاني من الوطن العربي. و من شأن ذلك أن يبقى العملية الشعرية في دائرة ضيقة لا ترى التميز إلا ضمنها. ولا عجب

في ذلك فقد ((أصبح قدوة بارزة للأغلبية الساحقة بين الجزائريين منذ ظهور الدعوة الإصلاحية ومؤيدوها من الطوائف الأخرى))⁽³⁰⁾.

أصبحت تصفية الجو الذي يخلق المبدع وفتح الطريق أمامه واسعا ضروريا كي يستعيد نشاطه ، لأن ما يشير إليه الناقد من التقليد العقيم الذي بدأ به الشاعر الجزائري خلال احتكاكه بالشعراء المشاركة كان مقبولا و مستساغا، إذا عرفنا أن الشاعر الجزائري كان يعيش عزلة صعبة فرضها عليه المحتل. فإلى جانب انقطاعه عن العالم العربي وما كان يجري فيه من تجديد، كان من الجهة الأخرى يعيش الجذب التي كانت تعيشه الحركة الأدبية والفراغ الرهيب التي عانت منه. كل هذا أثر في إبداعه، و لكن حين أتاحت له الفرصة للالتقاء مع غيره و الاطلاع عما يجري عند إخوانه فما ((لبث التجاوب أن فجر صورة رائعة من الطاقة الخلاقة الكامنة، و أصبحت النظرة المقلدة نظرة تجديد، بل تطلعت مواقف نقدية تقييمية لما تتلقاه من روافد الشرق العربي، وذهبت أبعد من ذلك إلى طرح إنتاجها في الدوريات البارزة في المشرق، تتلقاه هذه بترحيب و تقدير و تفسح له صفحاتها الأولى))⁽³¹⁾. إنه دليل قاطع على أن الاستعمار الغاشم الحاقدا كان سببا في تأخر الصحوة الأدبية عن صنوتها في المشرق. والآية على ذلك تفجير الطاقات التي كانت كامنة في نفوس كثير من المبدعين الجزائريين. فصار ضروريا تكوين مجتمع تكويننا ثقافيا يمكنه من الانفعال مع المبدع و يدفع به إلى الخلق والتجديد، إذ من الصعب على المبدع أن يرقى و يتطور في بيئة خاملة لا توليه أي اهتمام، إلا في حالات نادرة يمكن أن يظهر فيها المبدع متجاوزا لأوضاع عصره.

يأتي بعد هذا دور البعثات العلمية و ما ستقدمه للحركة الوطنية والإبداعية، فقد بدأت الزيارات المتبادلة بين مصلي المشرق و الجزائر. و لا يمكن إغفال ما لهذه البعثات من دور في الاستزادة من التكوين و معرفة ما فعله الاستعمار بهذا الشعب في جميع النواحي وبخاصة الناحية الثقافية. ثم معرفة ما وصلت إليه الحالة الثقافية عند هؤلاء. و لم تقتصر تلك البعثات على المشرق فقط فقد ((استطاعت البعثات العلمية الجزائرية التي تقاطرت على تونس قبيل الحرب و ما بعدها أن تقوم برسالة مزدوجة. رسالة قلمية بين سواي "جامع الزيتونة" وأخرى وطنية في النوادي والمحافل الخطابية و حتى في السجون، و انغمس الجزائريون في الحركة الوطنية في تونس انغماسا كلياً (...) و حملت هذه البعثات إلى الجزائر وجها جديدا من التفكير و النضال القلمي و اللساني، و ربما ضاقت الجزائر عن بعض نشاطها فسهرت عليه في تونس، و تخطت به الحدود إلى داخل القطر كتلك الصحافة التي أنشأها أبو اليقظان تحرر في الجزائر و تطبع في تونس وتوزع ثانية في الجزائر))⁽³²⁾ إنه السيل الذي لا يمكن لأحد أن يقف أمامه، و الانطلاقة الجبارة لرجال الإصلاح في جامع الزيتونة بتونس الذي صار قبلة رجال الإصلاح في الجزائر بدون منازع.

تلك هي بعض أسباب ضعف الحركة الأدبية في الجزائر، وبعض عوامل تطورها في رأي "صالح خرفي" مرتكزا في طرحها على الربط الوثيق بين السياسي والأدبي والتي أملت لها منطلقاته و مرجعياته التاريخية التي تجعل من الأدب مرآة للأوضاع السياسية و الثقافية لمجتمع ما. و من ثم يغدو التفسير غير آبه بالاستثناءات والمراحل الانتقالية التي تشتد فيها وطأة الظروف أو التي تكون فيها أقل حدة.

لكن "صالح خرفي" لا يرى بروزا للحركة الأدبية من خلال نماذج محددة لا يمكن لوحدتها أن تمنح لتلك الحركة طابع العموم والتميز. فالشلل الذي أصاب المجتمع الجزائري ومنعه من استثمار طاقاته الكامنة وقدراته الخلاقة كان سببها الرئيسي في رأيه الوجود العثماني وبعده الاستعمار الفرنسي.

وإذا كان تبرير الناقد مقبولا من وجهة تاريخية فإنه من حيث الإجراء الذي اعتمده في إصدار أحكامه يبقى كثيرا من الأسئلة بغير جواب يأتي في صدارتها: هل يمكن الحديث عن وجود أدب متميز قبل العهد العثماني؟ فإذا كان الجواب بالنفي، فإن ظاهرة الضعف عامة وذات سيورة تاريخية لم يكن للأتراك أن يكونوا سببا في بروزها. أما إذا كان بالإيجاب فإن كتابيه لا يشيرا لشاعر واحد يدخل خانة المتميزين.

الاحالات والهوامش:

1. صالح خرفي - شعر المقاومة الجزائرية - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 07.
2. المرجع السابق - ص 08.
3. المرجع السابق: ص 16.
4. محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1981 - ص: 273.
5. أبو القاسم سعد الله - تاريخ الجزائر الثقافي - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1981 - 190/1.
6. صالح خرفي - شعر المقاومة ص: 08.
7. أبو القاسم سعد الله - تاريخ الجزائر الثقافي - 190/1.
8. المرجع السابق: ص 188.
9. المرجع السابق، ص: 191.
10. صالح خرفي: شعر المقاومة الجزائرية - ص: 09.
11. المرجع السابق - ص 12.
12. ينظر الدكتور محمد بشير بويجرة - الشخصية في الرواية الجزائرية 1970 - 1983 - ديوان المطبوعات الجزائرية - الجزائر - 1986 - ص: 11.
13. محمد ناصر - الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية - دار الغرب الإسلامي - لبنان - ط 1 - 1985 - ص 23.
14. أبو القاسم سعد الله - دراسات في الأدب الجزائري الحديث - دار الآداب - لبنان - ط 2 / 1977 - ص: 21.
15. أبو القاسم سعد الله - دراسات في الأدب الجزائري الحديث - ص 31.
16. لؤناس شعبان - تطور الشعر الجزائري الحديث منذ سنة 1945 حتى سنة 1980 - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر 1988 - ص 10.
17. محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري - ص: 326.
18. المرجع السابق: ص: 326.
19. صالح خرفي - الشعر الجزائري الحديث - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1984 - ص 13.
20. المرجع السابق: ص: 13.

21. ينظر صالح خرفي : في رحاب المغرب العربي - دار الغرب الإسلامي - لبنان - ط1/1985 - ص: 172 وما بعدها.
22. صالح خرفي - شعر المقاومة الجزائرية - ص 31.
23. محمد ناصر - الشعر الجزائري الحديث - اتجاهاته وخصائصه الفنية ص 27.
24. * المنتقد 1925 - الشهاب 1925 - صدى الصحراء 1925 - واد ميزاب 1926 - الإصلاح 1927. على التمثيل لا الحصر . ينظر محمد ناصر : الصحف العربية الجزائرية 1845. 1939 - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1980.
25. ينظر محمد ناصر بوجحجاء : أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث 1925 - 1976 - المطبعة العربية - غرداية - الجزائر - ط1 - 26/1.
26. صالح خرفي - شعر المقاومة الجزائرية - ص 24.
27. صالح خرفي: الجزائر والأصالة الثورية - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1977 - ص: 77.
28. صالح خرفي: المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث - مجلة الثقافة - السنة الرابعة - ع: 21/1974 - ص: 46.
29. صالح خرفي - شعر المقاومة الجزائرية - ص 28- 29.
30. أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث - ص: 24.
31. صالح خرفي - الشعر الجزائري الحديث - ص 14.
32. صالح خرفي - شعر المقاومة الجزائرية - ص 29- 30.